

الموهبة والابداع

2005/08/23

حين يتحرك التاريخ ، والتاريخ قد يتباطؤ وقد يتسارع إلا انه لا يتوقف عن الحراك ابدا ، فانه يتحرك بفعل قاداته وصناعه من مبدعين ومفكرين وعلماء ومعرفين ينشطون من خلال اربعة عمليات مجتمعية رئيسية ، هي: العملية الاجتماعية - الثقافية والعملية السياسية والعملية الاقتصادية والعملية الاعلامية - المعلوماتية . وعلى الرغم من ان هذه العمليات كانت موجودة في كل مجتمع في الحاضر وفي الماضي ، الا انها تبلورت وقامت بقيادة حركة المجتمع والسيطرة عليه تباعاً . ولقد كانت العملية الاجتماعية - الثقافية أول تلك العمليات جميعاً ، حيث تبلورت في صورتها البدائية على شكل عادات وتقاليد وأعراف ومواقف ترسخت تدريجياً في حياة الناس وقامت بالسيطرة على حياة وحركة المجتمع القبلي عامة ، وحياة وحركة المجتمع الزراعي الذي تبعه وذلك لآلاف السنين التالية . وحين تبلورت الديانات المختلفة في أواخر عصر الزراعة اصبحت المعتقدات الدينية والقيم الاجتماعية المنبثقة عنها جوهر الثقافة وأهم العوامل المنظمة للحياة الاجتماعية بوجه عام .

ولما كانت الاحداث والاشياء المحركة للتاريخ لا يصنعها سوى المفكرون والمبدعون والعلماء والقادة ، فان التاريخ كلما احتفل بغير الموهوبين والعباقرة من صناعه وقاداته . ولقد ساهم المبدعون في توجيه حركة التاريخ من خلال خلق الجديد من الاشياء والادوات ، وتطوير الخلاق من الافكار والنظريات الفلسفية ، وتأسيس الرائد من الحركات الاجتماعية والسياسية والمؤسسات الاقتصادية ، وتطوير العلوم والفنون التكنولوجية ، وتصوير أحاسيس ومشاعر الناس الخفية على شكل قصص شيقة واساطير ساحرة وأشعار جميلة وأفلام مثيرة ورقص وموسيقى معبرة وغيره من علوم وفنون.

وعلى الرغم من تفاوت قدرات المجتمعات المختلفة على الخلق والابداع ، الا أن نسب الموهوبين في كل المجتمعات الانسانية متقاربة الى حد كبير، حيث تقدر بحوالي 20 % من إجمالي السكان . لكن البيئة الثقافية التي تكتنف حياة الناس ، والعوامل الاجتماعية والسياسية والظروف المعيشية والتحديات المجتمعية التي تواجههم تلعب عادة دوراً أساسياً في تشجيع بعض المجتمعات على اكتشاف وتنمية واستغلال المواهب لديها ، وتحرم مجتمعات أخرى من إدراك أهمية المواهب والقدرات الخلاقة الموجودة في ثناياها وإقامة المؤسسات المؤهلة لاستغلال إمكانياتها والاستفادة منها . وفي الواقع ، اعتقد ان كل فرد في المجتمع يملك موهبة خاصة تختلف كثيراً او قليلاً من حيث القيمة والاهمية والنوعية عن موهبة غيره من الناس ، فالعقل الانساني يملك قدرة جبارة على الخلق والابتكار، ولكن هذا العقل هو دوماً أسير الثقافة المتوارثة ، والنظم التعليمية ، والعقائد الدينية والفلسفات الحياتية الراجحة ، والانظمة السياسية والنظم الاجتماعية المتحكمة ، ودرجة الوعي المجتمعي والظروف المعيشية السائدة .

إن توفر المواهب لا يؤدي بالضرورة الى تفعيل قوى الخلق والابتكار والابداع في المجتمع ، وذلك لان الابداع يحتاج لبيئة اجتماعية وعلمية وسياسية معينة وإمكانيات مادية ومؤسسية لا تتوفر عادة لكل المجتمعات ولا في كل الظروف . إن بإمكان كل موهوب ان يصبح مبدعاً اذا توفرت له الظروف والإمكانيات المناسبة ، وان بإمكان كل موهوب ان يحافظ على موهبته وان ينميها اذا توفرت له حوافز العمل والانتاج ودواعي الابداع . لكن في غياب المحفزات المطلوبة والإمكانيات المادية والمؤسسية المناسبة والوعي المجتمعي الكافي باهمية العناية بالمبدعين يصبح من الصعب الحفاظ على المواهب في المجتمع ، ومن الصعب تنميتها والوصول بها الى مرحلة الابداع . وهذا يعني ان كل مبدع موهوب ، لان الموهبة اساس الابداع . لكن ليس كل موهوب مبدع ، وذلك لان الإبداع يحتاج لاشياء كثيرة لا تتوفر لكل موهوب .

كان التحدي الأهم الذي واجه الانسان الأول هو التعامل مع بيئته الطبيعية ذات المزاج المتقلب والعطاء المحدود . ولقد اتجه الانسان عموماً ، وذلك بسبب ضعفه وبدائية أدواته التكنولوجية وإنعدام معارفه العلمية ، الى التكيف مع أوضاع بيئته الطبيعية ، وذلك من خلال الترحال والتنقل المستمر بحثاً عن ثمار يقطفها وحيوانات يصطادها من ناحية ، والعيش في كهوف معتمة هرباً من تقلبات الطقس والحيوانات المفترسة من ناحية ثانية . لكن الانسان وبعد نجاحه في تدجين بعض الحيوانات واكتشاف دورة حياة النبات وتطوير الزراعة أصبح قادراً على التعامل مع بيئته الطبيعية بكفاءة اكبر من السابق ، وذلك من خلال فلاحه الارض وإنتاج حاجته من الغذاء ، وبناء بيوت أكثر أمناً ومقاومة للتقلبات الجوية ،

واستخدام بعض الحيوانات المدجنة في عمليات نقل المنتجات والتنقل بين اماكن مختلفة والاستفادة من بعضها الاخر في عمليات الصيد والغزو وتوفير الماكل والملبس .

يعتقد البعض وانا واحد منهم ان المرأة كانت الانسان الموهوب الذي إكتشف الزراعة وذلك لان ظروف الاستقرار النسبي التي عاشت في ظلها ساعدتها على إكتشاف دورة حياة النبات ، ومن ثم إستخدمت مواهبها لتطوير فن الزراعة وفلاحة الارض . أما الرجل فقد كان في حينه مشغولا في عمليات الصيد والتجوال والحروب التي إستهدفت اساسا غزو القبائل الاخرى ونهب ممتلكاتهم وسبي نساءهم . لكن الرجل إستخدم ايضا مواهبه في تطوير فن الحرب وتصنيع ادواته وتجهيز معدات القتال وتحمل تبعات النصر والهزيمة على السواء . وحيث ان الثورة الزراعية والتي ادت الى ميلاد فكرة التقدم هي اهم ثورة في تاريخ الانسانية ، فان دور المرأة في إرساء اسس التقدم المجتمعي كان كبيرا وهاما للغاية.

وبعد الانتقال من عصر الزراعة الى عصر الصناعة اتجه الانسان الى العمل على تكييف بيئته الطبيعية والسيطرة عليها لتتوافق مع احتياجاته المعيشية ورغباته في حياة اكثر امانا واستقرارا ورفاهية ورفقا . ولقد استوجب هذا التوجه وترتب عليه قيام الانسان بتطوير اساليب عمل وانماط إنتاج جديدة وادوات تكنولوجية وعلوم مبتكرة لزيادة عطاء الارض والنبات والحيوان والانسان على السواء ، وذلك الى جانب ادارة اوجه الحياة الاقتصادية وغير الاقتصادية بكفاءة اكبر. واليوم ، يتم انتقال الانسان من عصر الصناعة الى عصر المعرفة ، ومن صناعة البضائع الى صناعة المعلومات والخدمات ، وهذا يتطلب بذل كل الجهود لتحقيق الإستغلال الافضل لكافة المواهب المتوفرة في المجتمع ، ويفرض على ذلك المجتمع القبول بتحولات اجتماعية وثقافية كبيرة وعميقة من اجل التكييف لمتطلبات العصر والتعايش الايجابي معه.

ان تأسيس الصناعة على الآلة وعلى تصنيع المواد الغذائية والمعادن والملبوسات والجلود وغيره ساهم في احداث ثورة علمية وتكنولوجية بلا حدود . اذ أن التطلع الدائم نحو رفع انتاجية العامل والآلة والعمل الدؤوب على تحسين نوعية المنتجات وانتاج بضائع جديدة ، واستخدام العلوم والفنون التكنولوجية لانتاج معدات وادوات تساهم في تحسين نوعية ومستوى حياة المواطن وتعزيز قدرته على التمتع بوقته وماله جعل عملية التقدم المادي هدفا في حد ذاته . وهذا ادى بدوره الى حدوث تراكم كبير وتزايد متنامي في المعارف بكافة اشكالها واستخداماتها ، وفتح مجالا واسعا امام الموهوبين ليطوروا مواهبهم وصولا بها الى مرحلة الابداع . لكن، وكما كان عليه الحال في عصر الزراعة ، كانت المعرفة في معظمها حكراً على الاغنياء ونتاجا لجهود العلماء وخيال الموهوبين ونتاج المبدعين ممن سمحت لهم ظروفهم المعيشية وفرصهم التعليمية اكتشاف وتطوير مواهبهم وقدراتهم الخلاقة وإبراز أعمالهم الابداعية .

ان توفر الحرية لدى المفكر، والفرصة لدى المبدع ، وغياب الهاجس الامني الغذائي والمصري لدى المجتمع ، وتقدير قيمة الوقت جعل اوروبا الصناعية ومن بعدها الولايات المتحدة الامريكية اكبر حظيرة لتفريخ العلماء وتنشئة الموهوبين وتربية المبدعين وإنتاج المفكرين . ومع تسارع عمليات التراكم المعرفي والانتشار التكنولوجي والتوسع الاقتصادي كان من الطبيعي ان يتقدم المجتمع الصناعي على سواه من مجتمعات زراعية وغير زراعية أخرى وان يفرض على تلك المجتمعات ان تتحول الى مجتمعات متخلفة نسبيا عن العصر وتابعة تبعية علمية وتكنولوجية واقتصادية وثقافية وسياسية لمجتمعاته الصناعية.